مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الكلام: الإعطاء، التسمية، الاستدعاء

شهادة في حق بول ريكور ومناظرة معه

تأليف:
جاك دريدا

ترجمة:
خالد العارف و مصطفى العارف

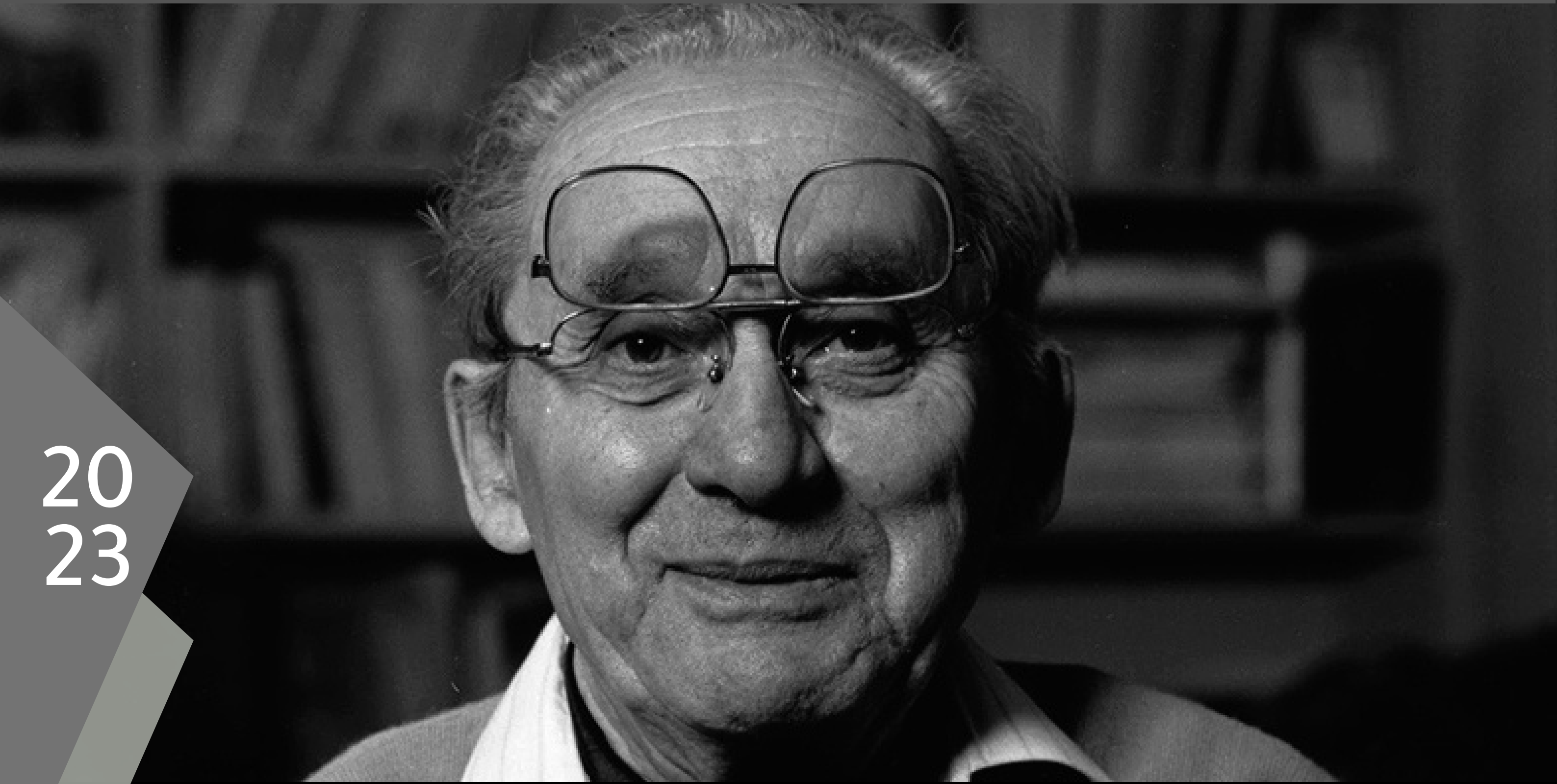

2023

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 27 أكتوبر 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

الكلام: الإعطاء، التسمية، الاستدعاء[1]

شهادة في حق بول ريكور ومناظرة معه

تأليف: **جاك دريدا**

ترجمة: **خالد العارف** و **مصطفى العارف**

1 - نشرت هذه الشهادة في كتاب جماعي حول بول ريكور:

- Paul Ricoeur 1, sous la direction de Myriam Revault d’Allonnes et de Francois Azouvi, éd de L’Herne, 2004, pp.26-39..

بدون أن أقِرَّ حقاً بإحساس بعدم الكفاءة، أعتقد أنه أبداً لم تعُزْني القوة بمثل هذا القدْر لمقاربة الإنتاجات الشاسعة لبول ريكور في شكل دراسة أو نقاش فلسفي. كيف يمكن أن نقتصر على حيِّز واحد أو محطة من المحطات فقط على طول مسار بهذه الشساعة، مسار جدّ غني، عبر العديد من المجالات، والمواضيع والإشكالات؛ من الأخلاق إلى التحليل النفسي، ومن الفينومينولوجيا إلى الهرمينوطيقا، وحتى التيولوجيا؛ ومن خلال التاريخ ومسؤولياته التي يتطلّبها منا كل يوم منذ عشرات السنين؛ من خلال تاريخ الفلسفة ومن خلال التأويلات المُبتكَرة لمجموعة من الفلاسفة، من أرسطو أو أغسطين إلى كانط، ثم من ياسبرز وهوسرل إلى هيدغر أو ليفيناس، هذا دون أن نتحدث عن فرويد أو مجموعة من الفلاسفة الأنجلوساكسونيين، حيث كانت لريكور الشجاعة وصفاء الذهن، النادرين في فرنسا، لقراءتهم وجعلهم مقروئين، وأخذهم بعين الاعتبار في أعماله التجديدية؟ يبدو لي الأمرُ صعباً إن لم نقل مستحيلا، إذا لم نتحاشَ خيانةً تختزلُ، في بضع صفحات، وحدةَ الأسلوبِ والقصد والفكر، بل والولع والإيمان، إيمان مفكَّر فيه ومفكِّر، وبالتزام لم يتنازل منذ البداية عن نوع من الوفاء، عن وفاء للذات كما للآخرين.

أجدني أبتسم وأنا أعيد قراءة ما كتبتُه بعفوية قبل قليل (أي «صعب» و«مستحيل»). لقد لاحظت ذلك فيما بعد، ذلك أن الكلمتين كانتا في صلب نقاش بيني وبين ريكور قبل سنتين حول الشر والصفح (وهو سجال كان في أول الأمر خاصاً، خلال غذاء قرب حديقة مونسوري Montsouris، ثم تحول إلى سجال عمومي في مناسبتين؛ خلال مائدة مستديرة نُظمتْ من طرف أونطوان غارابون Antoine Garapon رفقة قانونيين، ثم في دار أمريكا اللاتينية المنظم من طرف لور آدلر Laure Adler لأجل مؤسسة France culture–). ردّاً على عرضي ذي النزعة الاستغلاقية التي بموجبها يكون الصفح، في معناه غير السلبي، هو المستحيل عينه (l'im-possible)، (إننا لا نصفح إلا عمّا هو غير قابل للصفح، إذِ الصفح عما يُعدُّ بالفعل قابلا للصفح، ليس صفحاً؛ وهذا لا يعني أن الصفح غير موجود، ولكن يعني أن على الصفح، كي يبدوَ ممكناً، أن يفعل المستحيل، كما يقال: أن يَصفح عما هو غير قابل للصفح[1]). عارضَ ريكور لأكثر من مرة المقتَرحَ بعبارة أخرى: «الصفح ليس مستحيلا، بل صعب.» ما الفرق يا ترى بين «المستحيل» (غير السلبي) و«الصعب»، العسير، المستعصي، أو الصعوبة، ما هو غير قابل للفعل حتى، وأين يختفي هذا

1- يعتبر دريدا أن الصفح غير ممكن بل يكاد يكون مستحيلا. إن الصفح لا يكون خالصا، ولا ينبغي له أن يكون طبيعيا، ولا معياريا، ولا تطبيعيا. عليه أن يظل استثنائيا وخارقا في تداخل مع المستحيل.يصفح الصفح فقط عما لا يقبل الصفح. ليس في وسعنا، أو قل ليس علينا أن نصفح، بل ليس هناك صفح - إذا كان أصلا موجودا - إلا حيث يوجد ما لا يقبل الصفح، معنى هذا أنه يجب أن يعلن نفسه كما لو كان مستحيلا، المستحيل ذاته. ويعترض دريدا على مسألة الصفح المتبنى من طرف المؤسسات، مثل: لجنة الحقيقة والإنصاف في جنوب إفريقيا، حيث يشير إلى حالة شهادة غريبة وخاصة لسيدة عُذِّب زوجها حتى الموت من طرف الشرطة، لكنها فاجأت الجميع خلال شهادتها، حيث رفضت الصفح انطلاقا من مؤسسة ما، وقالت: «إن لجنة أو حكومة لا يمكنها الصفح. أنا التي يمكنني القيام بذلك عند الضرورة، وأنا غير مستعدة للصفح». إن الصفح غير ممكن لأنه هناك ما لا يقبل التكفيرinexpiable، فيصبح مستحيلا. انظر:

- Jacques Derrida, Foi et Savoir, suivi de Le Siècle et le Pardon, entretien avec Michel Wieviorka, éd du Seuil, 2001, pp. 108 -117 -118.

ويضيف «إن الصفح غير ممكن لأنه هناك ما لا يقبل التكفيرinexpiable، فيصبح مستحيلا». انظر:

- Jacques Derrida, Pardonner, L'impardonnable et l'imprescriptible, éd. Glilée, Paris, 2012, p.38.

الفرق؟ ما الفرق بين ما هو صعب جذرياً وما يبدو مستحيلاً im-possible؟[2] يرجع بنا هذا السؤال ربما، ولنقل ذلك باقتضاب، إلى الذاتية l'ipséité في عبارة «أنا أريد». إنه حشوٌ يؤكده علم الاشتقاق. إن الذات l'ipse هي قدرة أو إمكانية الأنا «Je» (أستطيع، أريد، أقرر). المستحيل الذي أتحدث عنه هنا، قد يعني أنني لا أستطيع، ولا يجب عليّ الزعم إطلاقاً، أنه بمقدرتي أن أقول بمسؤولية وجدية: «أنا أصفح» (أو أريد أو أقرر). إن الآخر وحده، أي ذاتي عينُها كآخر، هو ما يجعلني، في داخلي، أريد، أقرر أو أصفح، دون أن يُعفيني من أية مسؤولية مع ذلك.

منطق غريب لهذا التبادل بدون وفاق ولا خلاف، حيث يتبدى اللقاء التماسي، لقاءُ الميول، لقاءٌ منفلت ولكنه أيضا لقاء مراوغ في ظل قربٍ ودي جداً. (لقد «رافقنا» بعضنا بعضاً، كما قال لي ريكور مؤخراً ذات يوم، حين كنا نحاول معاً تصور ما حدث بيننا، وما لم يحدث خلال حياة بأكملها). «الترافق» (الطريقان المتوازيان اللذان قد يلتقيان عند اللانهائي، والمسار أو الإبحار جنباً إلى جنب وبشكل متقارب. إنه تحالف ضمني من دون صدام، لكنه يحترم الإختلاف الجذري)، سيكون إحدى الاستعارات الغنية الأكثر رُجْحاناً، حيث يمكننا محاولةُ ملاءمتها أو تعقيدها، أو حتى نقضها من أجل توضيح «مضمون» هذا «المنطق». أعتقد أننا إذا ما بسَطْنا مثل هذا الـ «منطق» عبر نصوص متعددة، آخذين بعين الاعتبار الصمت والانقطاع أسواءٌ كان عرضياً أو ضرورياً، مُعتبرينَ ما هو ضمني أو ما لا يمكن قوله، سوف نتمكن من التعرف، في قلب هذا المنطق، على القانون الدائم لحوار «متفرد» ما فتئ يغنيني منذ زمن بعيد. الحوار «المتفرد» هو إشارة سأعود فيما بعد للتذكير بسياقها.

من أجل تقديم شهادة عن إعجابي الثابت وصداقتي ببول ريكور، أو لنقل بجرأة أكبر، عن مودة متزايدة النمو، سمحت لنفسي بالعودة إلى بعض اللحظات العزيزة على ذاكرتي: بعض تلك اللحظات البارزة بالنسبة إلي، حيث شاهدتُ أو استمعتُ إلى بول ريكور، أو التقيت به على امتداد ما ينوف على خمسين سنة، حين منحني شرف محادثته؛ وقد كان الأمر حدثاً بالنسبة إلي في كل مرة. وبما أن الفلسفة لم تكن غائبة مطلقاً عن تلك الأقوال الحية، فإنها ستتمظهر دائما، وهذا ما أتمناه، من خلال الحكي الموجز لتلك اللحظات المباركة.

2- يكتب دريدا مفهوم «المستحيل» عل الشكل التالي im-possible، مشيراً هنا إلى أن شكل كتابة المفهوم لا يعني نفي الممكن من خلال إضافة البادئة «im». - يعد هذا المفهوم من المفاهيم الكثيرة التي طالها تلاعب دريدا بالكلمات والحروف، فهو يعتبر أن المستحيل ليس هو مقابل الممكن بل على العكس من ذلك هوما يمكن أن يكون ضرورة داخل الممكن؛ إنه ما يفتح أفقا للممكن ويجعله ممكناً.إن المستحيل، ويكتبها دريدا هكذا:

l'im-possible، إن المستحيل ممكن ليس لأنه يصبح ممكناً، بل لأنه يكون كذلك، في معناه الجذري، حيث يكون المستحيل ممكناً كمستحيل. إن الأمر هنا يعني تحويل الممكن إلى مستحيل والاعتراف أنه إذا كان المستحيل ممكناً (كمستحيل)، فإن الممكن بطريقة ما يكون هو أيضاً مستحيلاً. انظر:

- Francois Raffoul «Derrida et l'éthique de l'im-possible», Revue de métaphysique et de morale, 2007, n° 53, p. 75. Voir aussi: Jacques Derrida, *Dire l'événement, est-ce possible?* (avec Gad Soussana et Alexis Nouss), Paris, L'Harmattan, 2001, p. 98

هناك دائما لحظاتٌ للكلام، لأن في كل معاني هذا المفهوم، يبقى ريكور رجل الكلمة ورجل الكلام[3]. عندما أبحرتُ مجدداً في كتاباته بطريقة تكاد تكون تائهة من أجل إيجاد طريقي؛ أي بالضبط طريق معين للكلام، وجدت بالفعل مقالا[4] يعود إلى 1967. اكتشفت أنني كنت قد سطرت، في الهامش، بخط أحمر على فقرة بكاملها يعطي فيها ريكور الحق لهيلمسليف (الذي كنت مهتماً به كثيراً حينها، متسائلاً أنا أيضاً بطريقة مغايرة عن بعض حدود «الإيديولوجيا» البنيوية، التي سيطرت على تلك الحقبة)، حيث كتب ريكور:

«في هذا الإطار، هيلمسليف على حق (...) فالاستعمال والتوظيف يكونان عند التقاطع بين اللسان والكلام. يجب إذن، أن نستنتج أن الكلمة تسمِّي في الوقت نفسه الذي تحاول فيه الجملةُ قول شيء ما. إن الكلمة تسمي في موضع الجملة. في المعجم، مثلا، توجد فقط حلقة ممتدة من المصطلحات تتحدد بشكل دائري وتحوم داخل أسيجة المعجم. لكن في المقابل، لدينا هذه الحالة: حين يتحدث شخص ما، هناك من يتكلم ويقول شيئاً؛ فالكلمة تخرج من المعجم وتتحول إلى كلمة، عندما يصبحُ الإنسان كلاماً، وحيث يصبح الكلام خطاباً، والخطاب جملةً. وليس من قبيل الصدفة أن تكون مفردة Wort {كلمة} بالألمانية هي نفسها Wort، أي الكلام (هذا مع الإشارة إلى أن Wort وWort ليس لهما نفس الجمع). فالكلمات هي، إذن، علامات في موضع الكلام. إنها نقطة تمفصُلِ السيميولوجي والدلالي في كل كلام باعتباره حدثاً (...) فالجملة، كما رأينا، تشكل حدثاً: وبهذا المعنى، فإن راهنيتها انتقالية وعابرة ومتلاشية. لكن الكلمة تُعمِّر أطول من الجملة؛ باعتبارها كياناً متنقلا، فإنها تتجاوز الطابع الانتقالي للوضعية التلفظية للخطاب لتبقى جاهزة لأي استخدام جديد».

قبالة هذه الجملة الأخيرة، كتبتُ بخط أحمر: «حين عودتها {الكلمة} إلى النسق». ويسترسل ريكور: «وهكذا، فإن الكلمة، تعود إلى النسق محمّلةً بقيمة استعمالية جديدة، حتى لو كانت هذه القيمة هزيلة. وبعودتها إلى النسق، فإنها تُعطيه تاريخاً.»

3- لو توفر لي الجهد والوقت والمكان، لكنتُ رغبتُ في تتبع مسار لفظة «كلام» في أعمال ريكور بين الاعتراف والشهادة والصفح، على الأقل منذ صدور التناهي والإثم (أوبيي، 1960)، حيث يذكر في الصفحة الأولى من المقدمة المعنونة بـ «فينومينولوجيا الاعتراف»، ما يلي: «هذا الاعتراف هو نوع من **الكلام** [التوكيد لريكور]، كلام يقوله الإنسان عن نفسه، بيد أن كل كلام يمكن، بل يجب «استئنافه» كعنصر في الخطاب الفلسفي») وصولاً إلى ما قيل حول الشهادة في كتابه الذاكرة التاريخ والنسيان ص 207، («ما يؤسسُ هو أولاً استقرار الشهادة القابلة للتكرار، ثم بعد ذلك هناك صِدقية كل شهادة، والتي تساهم في وثوقية الروابط الاجتماعية من حيث إن الأخيرة ترتكز على الثقة في **كلام** الغير.» [التوكيد من عندنا]، ومروراً بـ «هرمينوطيقا الشهادة» (في كتابه قراءات 3، على حدود الفلسفة، سوي 1992)، وهو مقال رائع وغني جداً، إذ كان إثراءً بالنسبة إلي خلال حلقة دراسية دامت ثلاث سنوات (يكتب ريكور هنا: «يبدو معنى الشهادة مقلوباً، ذلك أن الكلمة لم تعد تشير إلى فعل **الكلام**، أي التقرير الشفوي لشاهد العيان حول واقعة ما حضرها؛ بل الشهادة هي الفعل نفسه باعتبارها تثبت، في شكلها البراني، جوانية الإنسان نفسه، قناعته وإيمانه. ومع ذلك، فإنه لا وجود لقطيعة في المعنى (...). نمرّ عبر مراحل مضبوطة من الشهادة المسموعة بمعناها الذي يفيد التقرير حول وقائع معينة، إلى الإثبات بواسطة الفعل والموت؛ فالتزام الشاهد في الشهادة هو النقطة الثابتة التي تدور حولها تشكيلات المعنى. إن هذا الالتزام هو ما يُحدث الفرق بين الشاهد المزور والشاهد الحقيقي والصادق» ص117. [التوكيد من عندنا]. ودائماً على حدود الفلسفة يضيف: «إن مفهوم الشهادة كما ينبثق من تفسير الكتاب المقدس هو نوع من الهرمينوطيقا بمعنيين اثنين؛ أولُهما، بدايةً، هو المعنى الذي **يقدمه** لتأويل المضمون الذي علينا تأويله. ثم ثانيهما أنه **يستدعي** تأويلا معيناً». الإعطاء والاستدعاء: في الترابط بين هاتين الكلمتين ألمحُ ما يشبه توقيعاً تعبيرياً لبول ريكور، الذي يضيف في موضع آخر: «الشهادة هي ανάγκη στήναι {حاجة} التأويل. الهرمينوطيقا بدون شهادة سيكون محكوماً عليها بتراجع لا حد له داخل منظورية لا بداية لها ولا نهاية. سماع مثل هذا الكلام صعب جداً على الفيلسوف».(ص130) {**إحالة ديريدا**}.

4- «البنية الكلمة والحدث»، نشر في مجلة إسبري 5، ماي 1967، ص 817. التوكيد لكلمات: **كلام**. **يُسمي**. **حدث وتاريخ**، من عندنا.أعيد نشره في كتاب صراع التأويلات. {**إحالة ديريدا**}.

في الهامش، كتبتُ بسرور نابع من استشرافي لهذه النتيجة بشكلها الحرفي، وبرضىً ذاتي ساذجٍ أزيد في تعميقه اليوم مجدداً باعترافي به، «هو ذاك..»

لقد مر نصف قرن على كل هذا، حيث لن أستذكر سوى لقاءات وأحداث وأقوال تبدو عابرة، تحاول ذاكرتي أن تستبقيها حية كهدايا ثمينة. أول مرة رأيت فيها ريكور واستمعت إليه، كانت ربما في 1953، ولم أكن قد قرأته إلا قليلا جداً. كنت وقتئذ طالباً في المدرسة العليا، واقترح عليَّ واحدٌ من أعز أصدقائي الحضورَ بصحبته لجلسةٍ حوارية نظَّمتْها، فيما أعتقد، مجلة إيسبري Esprit في شاطوناي مالابري Châtenay-Malabry. كان هناك مارو Marrou واستمعت إليه هو أيضاً لأول مرة. وأُعجبتُ بخطاب ريكور: خطاب واضح وأنيق وفيه قوة استدلالية وحِجِّية من دون سلطان، والتزام فكري. كان الأمر يتعلق، على نحو مبكِّر، بـ «التاريخ والحقيقة»[5]، وببعض الإشكالات الأخلاقية والسياسية لتلك الآونة أيضاً. في الصيف الموالي، قررتُ تخصيص بحثي للدراسات العليا لمشكل التكوين عند هوسرل[6]، ورحلت إلى منطقة البيار لعدة أسابيع قرأتُ خلالها كتاب Ideen 1 {أفكار1} لهوسرل[7]. هذا الكتاب، كما هو معروف، ترجمه وعلق عليه وقدمه وأوّله بول ريكور، حيث خصّه بعُدّةٍ ثرية من الهوامش نوَّرت قراءتي له. وهذا صحيح اليوم أيضاً، حين أعود إلى الكتاب. لقد كان، إذن، ريكور، هذا القارئ الكبير لهوسرل، هو من علَّمني، بصرامته التي فاقت صرامة سارتر وحتى ميرلوبونتي، قراءة «الفينومينولوجيا»، واستعملتُه نوعاً ما كمرشد منذئذ. أتذكر أيضاً مقالاته حول كانط وهوسرل وحول الأزمة إلخ، تلك المقالات التي أصبحت فيما بعد بمثابة مراجع أساسية في مقدمتي لكتاب أصل الهندسة لهوسرل.

ابتداءً من 1960، أصبحت أستاذاً مساعداً للفلسفة العامة في السوربون، حيث التقيت ريكور لأول مرة (بزمن قليل بعدها حسب ما أظن) بعد أن عُيِّن هناك. في ذلك العهد، كان للأساتذةِ المساعدين مركزٌ غريب يصعبُ تصوره اليوم. لقد كنت الأستاذَ المساعدَ الوحيد «للفلسفة العامة والمنطق»، وكنت حراً في تدبير محاضراتي وتنظيم حلقاتي الدراسية كما أريد، غير معتمدٍ إلا بشكل نظري جداً على الأساتذة الذين كنتُ قانونياً مساعداً لهم: سوزان باشلار، كانغيليم، بواريي، بولان، ريكور وفال. نادراً ما كنت ألتقي بهم خارج قاعات الامتحانات باستثناء سوزان باشلار وكانغليم - صديقي الأبوي المُبجّل - الذين كنتُ ألتقيهم في غضون نهاية مساري هناك. في يوم ما، على الأرجح في سنة 1962، زرت بول ريكور في شاطوناي مالابري Châtenay Malabry وخلال جولة في حديقته، تحدثَ إليّ بحماس عن كتاب «الكلي واللانهائي»[8]،

5- Paul Ricœur, *Histoire et vérité*, Paris, Seuil, 1955.

6- Jacques Derrida, *Le problème de la genèse dans la philosophie de Husserl*, Collection Épiméthée, Presses Un - versitaires de France, Paris, 1990

7- Edmund Husserl, *Idées directrices pour une phénoménologie*, tr. P. Ricœur, Paris, Gallimard, 1985

8- Emmanuel Levinas, *Totalité et infini*: *Essai sur l'extériorité*, La Haye, M. Nijhoff, 1961

والذي كان وقتئذ عبارة عن أطروحة دكتوراه كان ليفيناس سيدافع عنها في الأيام القليلة الموالية. لم يكن الكتاب قد صدر بعد. ريكور، الذي كان عضوا في لجنة المناقشة، كان قد فرغ للتو من قراءة الكتاب، وقال لي: إنه كتاب عظيم، إنه حدث. لم أكن أعرف عن ليفيناس سوى نصوصه حول هوسرل؛ ومرة أخرى، وانطلاقاً من كلمات ريكور التوجيهية، قرأتُ في الصيف الموالي كتاب الكلي واللانهائي وكتبتُ «العنف والميتافيزيقا»[9]، وهي أول دراسة خصصْتُها لليفيناس ضمن سلسلة من الدراسات امتدت لثلاثين سنة. إنني هنا مدين نوعاً ما لريكور على الصداقة القيّمة التي ربطتني منذئذ بشخص إيمانويل ليفيناس وأعماله، وقد كان ذلك الأمر أيضاً فرصة من فرص حياتي.

إلى تلك السنوات في السوربون، ولكن أيضاً تلك السنوات الموالية لالتحاقي بالمدرسة العليا، ترجع أيضاً اللقاءات في حلقات الدرس المنظمة من طرف ريكور، الذي كان مديرا لأرشيف هوسرل (الذي يضم أيضاً الأفلام القصيرة التي كانت في باريس)، حيث كان يستقبل الطلبة والباحثين والزملاء لإعطائهم الكلمة. أتذكر أنني خلال تلك السنوات ألقيتُ عرْضاً هناك في باريس والتقيتُ بعددٍ من المهتمين بهوسرل، بالإضافة إلى ليفيناس. بفضل ريكور، كانت الروح السائدة في تلك الحلقات الدراسية نموذجية: هدوء، حرية، نقاشات ودية وصرامة واستشراف لأبحاث حقيقية.

سنوات بعد ذلك، وبالضبط في سنة 1971 في **موريال**، كانت لي مع ريكور أول وأطول محادثة شفوية تم نشرها لحد الآن[10]؛ لقد فرغت للتو من قراءتها لأول مرة بعد أكثر من ثلاثين سنة. كان ريكور قد قدم المحاضرة الإفتتاحية تحت عنوان «الخطاب والتواصل.» بعده مباشرة، قدّمتُ مداخلتي حول «التوقيع، الحدث، والسياق». بعدها، كانت هناك مداخلات أعقبتْها مائدة مستديرة دامت لمدة ساعتين. أُنفقَ وقتُ المائدة بشكل كبير في ما سمّاه رئيس الجلسة «نزالاً ودياً متفرداً» بيني وبين ريكور، وهو نزال يغطي أربعين صفحة لن أحاول أن أعيد تشكيلها هنا بسبب ضيق المقام، ولأنه لا مجال لفتح نقاش فلسفي عميق في هذه الشهادة.

لكن اليوم، بما أن هذه الأعمال هي الآن جزء من أرشيف بعيد المنال شيئاً ما، أرشيف أضحى عملياً غير منشور، أرجو أن يُسمح لي بالانصياع للرغبة في اقتباس مقتطف من النسخة الصوتية (التي ستكون من دون شك مشوبةً ببعض الأخطاء هنا وهناك)، اقتباسٍ متتالية وجيزة وحماسية. إنها تبدو لي، ولذلك تجرأت على اقتباسها، تُميّز هذا النوع من التجاذب الحماسي على حافة هوّة، أو لنقل فوقها. هذا التجاذب الحماسي يرسم ربما صورة دقيقة ودائمة لحوارنا «المتفرد» سواءٌ أكان حواراً منطوقاً، أو مكتوباً أو صامتاً. (التجاذب

9- Jacques Derrida, *Violence et métaphysique: Essai sur la pensée d'Emmanuel Levinas*, Revue de Métaphysique et de Morale, vol. 69, n°3, juillet-septembre (partie I), vol. 69, n°4, octobre-décembre (partie II) repris in, *L'écriture et la différence*, Paris, Seuil, 1967

10- التواصل. أنشطة المؤتمر الخامس عشر لجمعية مجتمعات الفلسفة الفرنسية، جامعة مونريال، منشورات مونمرنسي، مونريال، 1973. {**الناشر**}.

الحماسي لا يعود إلى «الترافق»، ونحن لم نستنفذ استعاراتنا.) تقودنا هذه المتتالية، عدا ذلك، إلى التساؤل الذي ذكرتُه سابقاً، ذاك المرتبط بالسيميولوجي والدّلالي، بالكلمة، بالجملة والتسمية والكلام والحدث.

بول ريكور: (...) إذن أنت مضطر لإثقال نظرية الكتابة بكل ما لم يتم القيام به في المكان المناسب، باعتبارها نظرية في الخطاب. فإذا كانت نظرية الخطاب قد أُقيمت، فسيكون بوسعها أن تأخذ بعين الاعتبار خصائص الكتابة التي بينتَها، لأنه داخل الخطابية نفسها توجد جميع الصفات التي نسبتَها للكتابة. إن هذا المشكل هو ما أودّ، من جهتي، أن أناقشه معك قليلاً.

جاك دريدا: مما لا شك فيه أن ثغرةَ نظريةِ الخطاب، من بين ثغرات أخرى، هي بارزة جداً، ليس فقط من خلال العرض الذي قدّمتُه هذا الصباح، ولكن أيضاً من خلال القضايا التي جازفتُ بطرحها في مواضع أخرى. ما كان يهمّني بشكل سابق على نظرية الخطاب، والتي تعتبر بالفعل ضرورية، ما كان يهمّني، هو وضع الأصبع على جميع الافتراضات، ولنقل بسرعة، اللانقدية، التي كانت تبدو لي تكبح إلى حدود الآن محاولات نظرية الخطاب التي كان بالإمكان أن نشهدها في اللسانيات كما في الفلسفة. هذه الافتراضات هي التي عرضتُها على شكل خطاطة هذا الصباح؛ بمعنى آخر، أن شيئا مثل الحدث، هو، على سبيل المثال، شيء مسلم به؛ أي أننا نعرف أنه كان حدثاً. بيد أن نظريةً في الخطاب تفترض نظريةً للحدث، ونظرية في الفعل التلفظي؛ أي نظريةً في الفعل كحدث متفرد، وارتباطاً بمفهوم الحدث مثلا - الذي يمثل هيكلا (وقد قلت سابقا «سلسلة») يتداخل مع مجموعة من المفاهيم الأخرى - حاولتُ إبراز ما يمنع كل حدث مزعوم (متفرد، حالي، حاضر، غير قابل للتعويض، غير قابل للتكرار...) من أن يتشكل كحدث في معناه الفلسفي؛ بعبارة أخرى، ذلك الشيء الذي يكسر فرادته ببساطة، لأن هذا الحدث كان نوعاً خطابياً؛ أي بكل بساطة ما يجعله حدثاً سيميولوجياً، وعندما تقول إن...

بول ريكور: لا يتعلق الأمر بنفس الشيء...

جاك دريدا: نعم، سأحاول...

بول ريكور: هذا هو الفرق بين السيميولوجي والدلالي (...)

جاك دريدا: بالضبط... سأتحدث عن ذلك...

بول ريكور: الذي يبدو لي أساسيا...

جاك دريدا: سأتحدث عن ذلك...

بول ريكور: ومشوش داخل نظرية سميولوجية للكتابة بسبب ملامح كثيرة، لكنه يريد حل إشكالات دلالية بواسطة مصادر سيميولوجية.

جاك دريدا: نعم، سأمر إلى هذه النقطة إذن، وسأدقق الأمر قبْلياً بالقول إن ما أحاول القيام به هنا هو أيضاً محاولة نقدية للسيميولوجيا. ونتيجة لذلك، يبدو لي من الصعب حصرُ ما أقوم به داخل السيميولوجيا (...) ما أحاول القيام به لا يتعلق بتاتاً باختزال الخطاب إلى مجموعة من العلامات، لكن بمحاولة تجنّب السهو أنّ هناك علامات في الخطاب أيضاً، مما يعني أن مع العلامة هناك سلسلة تفاضلية وتباعد إلخ...وهذا كل ما يمكن أن...

بول ريكور: نعم، لكن أعتقد أنه يجب أن نوضح القصد من التباعد. لا يتعلق الأمر بنفس التباعد الموجود في النظام السيميولوجي، عندما تكون العلامة مختلفة عن علامة أخرى: سواء أكان تباعداً صوتياً أو خطياً فهو تباعد سيميولوجي، لكن في تباعد الخطاب يكون الأمر مختلفاً تماماً (...) وعندما تقول لي إن الخطاب يُقرأ دائماً داخل نظام من العلامات، فأنا أتفق معك، لكن يمكنه أن يغير شكل تشابكه، وهذه هي الترجمة. المشكل، إذن، هو أن نعرف ماذا نترجم؛ إن ما نترجمُه هو معنى الخطاب؛ أي أنك تنقل الخطاب من نسق سيميولوجي إلى نسق سيميولوجي آخر. ما الذي يحدث هنا؟ يتعلق الأمر بملامح المعنى. لكن إذا لم يكن لديك نظرية في المعنى، فإنك لا تستطيع إقامة نظرية في الترجمة أيضاً.

جاك دريدا: هل أنا مخطئ أم أنك تختصُّ السيميولوجي بالاختلاف كما لو أنه لا وجود للاختلاف الدلالي، كما لو أن علم الدلالة لا يتشكل هو أيضاً بطريقة تفاضلية؟

بول ريكور: لكنني لن أجعل هنا لكلمة اختلاف حرفاً كبيراً Majuscule.

جاك دريدا: لطالما انتقدْتَني على كتابة اختلاف بحرف كبير... لكنني لم أفعل ذلك مطلقاً.

بول ريكور: لكنك تستبدل حرف e بحرف a[11].

جاك دريدا: لكن ذلك يتعلق بمعنى آخر للكلمة...

11- يقصد ريكور هنا مفهوم différ*a*nce عند دريدا الذي ظهر أول مرة في نص بعنوان «**التكوين والبنية في الفينومينولوجيا**»، وهو عبارة عن محاضرة ألقاها دريدا سنة 1959 ونشرت في كتابه الكتابة والاختلاف 1967. وقد ذكر هذه الكلمة في الصفحة 239. لكن المفهوم هو في الأصل عنوان لمحاضرة ألقاها دريدا في يناير 1968 ونشرت في كتابه هوامش الفلسفة 1972، ص 1-29. يؤكد دريدا منذ البداية أن différ*a*nce ليست كلمة أو مفهوماً، ويرى أن هذا التغيير الذي يلحقه باستبدال حرف e ب a يعبر عن إشكال فلسفي حول الكتابة (ص4)، ذلك أنه إذا كان الأمر يتعلق بحرفين صامتين هما e و a فإنه سيخلق اختلافاً يمكن كتابته وقراءته لكن لا يمكن سماعه (ص4)، فلا وجود لكتابة صوتية خالصة وصارمة (ص5). وبذلك تفيد différ*a*nce الإرجاء والمباينة؛ ففكرة الاختلاف تهدم فلسفة الحضور لتحيل على الغياب. إن البنية المحددة كلاسيكياً بالعلامة، حسب دريدا، تفترض مسبقاً أن هذه العلامة لا نفكر فيها إلا انطلاقاً من الحضور الذي يختلف عنها؛ أي أنها تتحدد انطلاقاً من غيابها، فالمعنى لا يتحدد في النص وحده بل بالإحالة دائما إلى ميتافيزيقا حاضرة دائماً في الفكر (ص9).

بول ريكور: إنه معنى آخر للكلمة. هناك اختلاف بين العلامات، ثم إن هناك حقيقةَ أن المبتدأ (الفاعل) ليس هو الخبر prédicat، وفي النهاية يوجد الاختلاف في كل مكان، لكن المهم هو أن الخطاب ينتجُ عن طريق اختلافات معينة، لكنها ليست اختلافات سيميولوجية؛ أي تأثيرات الخطاب المغايرة لتأثيرات العلامات.

جاك دريـدا: أنا متفق معك تماماً ! لهذا السبب لم أقل أبـداً إن الإختلاف يخص فقط العنصر السيميولوجي...

مناظرة أخرى تم الاقتصار على تدوينها، وأعتقد أننا لم نتحدث عنها أبداً بأصوات حية. وحسب القاعدة التي وضعتُها لنفسي، فإنني لن أتحدث عنها هنا. سأقتصر على إعطاء القراء المهتمين الحد الأدنى من الإحالات. في نفس السنة (سنة 1971، إذن) نشرتُ مقالاً بعنوان «الميثولوجيا البيضاء: الاستعارة في النص الفلسفي»[12]، وقد خصّه ريكور، في كتابه الاستعارة الحية، بقراءة نقدية حادة جداً، لكنها مثل سابقاتها نزيهة وأنيقة.

هل يُعتبر تطفلاً أن أقتبس هنا من إهداء هذا الكتاب؟ سوف أقوم بالأمر، مع ذلك، باعتباري شاهداً مميزاً أو فريداً؛ لأن هذا الإهداء لم يُنشر في الكتاب. تضمّن هذا الإهداء كلمةً «تقاطع» (وهو من بين الاستعارات الكثيرة التي أبحث عنها من أجل وصف الاستئناف المتواصل لهذا الحوار المتفرد: «الترافق»، كما قال مؤخراً، أو التجاذب الحماسي كما قلتُ للتو): «إلى جاك دريدا، تقديراً لفكر صادق، أُهدي هذه الفاتحة الشارحة من أجل «تقاطع» جديد.» وإذْ كنت قد حاولت الاستجابة لنقده الحيوي في مقالي «انسحاب الميتافيزيقا»[13]، دون أن أعيد فتح ذلك النقاش هنا، (لأنه يبدو مستحيلاً في الحدود التي نحن فيها اليوم)، سأُذكِّر فقط بعبارة لريكور؛ ليس لأنني أجدها صائبة أو حقيقية (لقد شرحتُ ذلك في موضع آخر)، لكن لأنها تحدد الحياة والموت بطريقة أخّاذة للغاية، وهو ما يؤثر فيّ اليوم أكثر من أي وقت مضى لأسباب عديدة، تستدعي حديثاً ذا شجون. ها هو الاقتباس، إذن:

«يمكن أن نميز تأكيدين اثنين في التشابك الاستدلالي المزدحم لجاك دريدا. يرتبط الأول بفعالية الاستعارة البالية في الخطاب الفلسفي. أما الثاني، فيتعلق بالوحدة العميقة للانتقال الاستعاري والانتقال التماثلي من الكائن المرئي إلى الكائن العاقل.

يأخذ التأكيد الأول كل عملنا الذي يرومُ اكتشافَ الاستعارة الحية، من قفاه. إن ضربة المُعلم هنا تتمثل في الدخول إلى الميتافيزيقا، ليس من بوابة الخلق، ولكن من بوابة الموت، إن أمكن القول.»

12- بويتيك {الشعرية}، عدد5، 1971؛ أعيد نشره في كتاب: هوامش الفلسفة، باريس، مينوي، 1972. {**الناشر**}.

13- بويزي {الشعرية}، عدد 7، 1978. أعيد نشره في: النفسي، اختلاق الآخر، باريس، غاليلي، 1987 الطبعة الجديدة، المزيدة والمنقحة، ج 1، 1998، ص 63 وما يليها. {**الناشر**}.

على الرغم من شكي في صحة ما قيل عن نصي حول الاستعارة، إذ لم يعدْ لذلك أهمية اليوم، أعتقد أن رأي ريكور، في ذهابه أبعد من هذا النقاش، هو رأي صائب وعميق فيما يخصّني وبادراتي الفلسفية. لقد اتجهتُ دائماً إلى التأكيد وإعادة التأكيد المنيع للحياة، وللرغبة في الحياة، مارّاً للأسف، عبر «بوابة الموت»[14]، بعينين مركزتين عليها في كل لحظة، في لحظات الفزع والرجفة طبعاً. وذلك صحيح بالقدر نفسه أيضاً، بالنسبة إلى الآخرين الذين أحبهم. منذ أمد قريب، قال لي ريكور: «إن الموت لا يخيفني، أما الوحدة فبلى.» أعتقد أنني لم أعرف كيف أجيبه، ولستُ أعرف ذلك إلى حدود اليوم. بالتأكيد أنني يومها صغتُ في سرِّي ومن أجلي، مثلما أفعل اليوم، متمنياتي أن يُوقى من الأولى كما من الثانية لأكبر وقت ممكن. ليحرسْنا كلامُ ريكور كما كتاباته بالقدر نفسه.

سأختم، موقّعاً شهادة التقدير والإخلاص هاته، باستعارة «حية» أخيرة. يبدو لي أننا تقاسمنا معتقداً واحداً وسلوكاً إيمانياً واحداً، كل بطريقته الخاصة وانطلاقاً من موقعه الخاص، ومكان ولادته و«منظوره» (أي نعم) واشتركنا في «بوابة للموت» الوحيدة. هذا الإعتقاد، مثله مثل الوعد، يلزمنا. إن الكلمة بوصفها وعداً تستحثنا لمعرفة شيء بسيط ومدهش سأمثّله هكذا: من فوق هوة منيعة أو عبرها، تعذّر علينا تسميتها، يمكننا مع ذلك أن نتحادث ونسمع بعضنا، وحتى أن نطلق على نفسينا اسماً شخصياً، وهو الهدية الأخرى التي تلقيتها منه.

سنفعل ذلك مجدداً بالهاتف، كما فعلناه منذ لحظة، لتبادل الأخبار والمتمنيات.

31 دجنبر/ كانون الأول، 2003

14- مرجع سبق ذكره، ص 362. {**الناشر**}.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث